طاغور وغاندى

بين الشرق والغرب

للأستاذ عبد العزيز محمد الزكى

- ١ -

لقد أخذ الشرق العربى يتخوف من الدول الغربية الكبرى وأخذ يشك فى قيم حضارتها المادية ، بعد أن خانت عهودها معه ، وسخرت من عواطفه القومية ، وداست على رغباته فى الرقى والتقدم ويود اليوم كل عربى استكان فى فترة من الزمن لثقافة الغرب ومدنيته ، ورضى أن يعتمد عليها فى حياته المادية والمعنوية ، أن يغير نظرته إلى الغرب ، ويفكر فى الاستغناء عنه فى كل شىء .

ولقد سبق طاغور وغاندى العالم العربى فى هذه المشاعر ، بعد أن عانت الهند ماعانت من عذاب الاستعمار الانجليزى . فوهب طاغور العالمى النزعة والتفكير ، جميع طاقاته العقلية فى سبيل وضع تصميم حديث للحياة الإنسانية ، استوحاه من فكرة وحدة الوجود الهندوكية ، ودمج فيه حضارات الشرق فى حضارات الغرب ، وجمع بين زبدهما الثقافى ، وأراد به أن ينشئ عقلية عالمية تخلص من ناحية من مادية الغرب وأنانية شعبه وحبه للسيطرة وإمعانه فى الإباحية التى تجعل استتباب الأمن ونشر السلام فى العالم مستحيلا ، وتنشر التذمر والضيق فى جميع البلدان . وتتحرر من ناحية أخرى مما علق بالحياة الهندية من تقاليد قديمة عرقلت نهضة الهند وعاقت تقدم شعبه ؛ فإن التشاؤم واحتقار الحياة وتحاشى الإنغماس فيها ، قضى على نشاط الهنود المادى ، وأدى إلى تأخرهم فى مختلف نواحى النشاط الإنسانى ، فأنتج نتاجاً فكرياً روحياً إنسانياً عالياً ، يخلو من شوائب الحضارات الهندية وضلالات الحضارات الغربية ، ومن نقائص الدنيات القديمة والحديثة والمعاصرة جميعاً ، وتدعمه الأصول الروحية ، ويرفع من صرح الأخلاق والفضيلة والدين ، ويعطى للعلم والفن والعمل قيمة جليلة فى الحياة البشرية . بينما هب غاندى الزعيم الوطنى ، يجاهد فى سبيل حرية الوطن بسلاح معنوى استلهمه من فكرة الحب والتسامح التى تكاد تنادى جميع كتب الهند الدينية بضرورة اتباعها ؛ واستغلها بدهائه الروحى فى مقاومة الاستعمار البريطانى فى الهند ، واتخذ من المقاومة السلبية التى أقامها على اللين وعدم الانتقام ، سبيلا دينياً لإشعال الحمية الوطنية وتقوية الحماسة القومية ، ونهجاً سياسياً رد به للهند استقلالها ، ومنحها حريتها السلوبة .

وقبل أن يحدد طاغور الهندى موقفه من حضارات الغرب والشرق ، تأمل فى تراث الحضارات الغربية القديمة فوجدها جميعاً قد نشأت بين جدران مدن أشادها الإنسان ليحمى نفسه من شر أخيه الإنسان ، أو ليقى حياته من هياج قوى الطبيعة . فمنعت هذه الجدران إتصال الشعوب بعضها ببعض ، وعاقت إختلاط الثقافات وتمازجها ، وقضت على تبادل الحب والنفعة ؛ كما حالت دون ائتلاف الإنسان بالطبيعة . فشب الغربى أنانيا ، يوجه كل إهتمامه نحو نفسه ، أو نحو بنى مدينته يفضلهم على الغرباء عن وطنه الذين ينظر إليهم كمنافسين خطرين له ولأهله ، يجب عليه أن يغتصب منهم كل ما يستطيع أن يغتصبه قبل أن يغتصبوا منه شيئاً مما يملك ، ونشأ ساخطاً على الطبيعة ، يخاف غضب قواها ، ويتصورها عدوا له ، يجب أن يحذره ، ليحفظ كيانه من شدة تقلباتها ، وليبعد خطر زوابعها عنه . فغرست هذه الحياة فى نفوس الغربيين الأنانية وحب السيطرة ، وصرفت نشاطهم إلى بسط نفوذهم على ما يحيط بهم من بلدان وشعوب ، وصرفت أعمارهم لمكافحة الطبيعة والسيطرة عليها ، ودفعتهم إلى أن يعتنوا عناية فائقة بشحذ مختلف مواهب الإنسان وملكاته سواء أكانت عقلية أم فنية ، وبكسب مهارات صناعية ، وقدرات يدوية لتساعدهم على محاربة الطبيعة ، واستغلال الفقراء ، وإذلال الشعوب الضعيفة . وكان ذلك كله سبباً فى تفوق الغرب فى العلوم والفنون ، وعله تأسيسه حضارة استكملت نهضتها بتقدم البحث العلمى ، واختراع شتى الآلات الصناعية والأدوات الحربية التى تشهد بمقدرة الغربيين فى الصناعة والحرب ، وتدل على مهارتهم فى توزيع مصنوعاتهم وترويجها فى أسواق الأمم القريبة والبعيدة . فعادت عليهم بأرباح وفيرة وثروات طائلة أقنعتهم بأن تصريف

أمور الحياة الأرضية لا تخضع إلا للمال . فآمن الغرب بأن المال هو الغاية القصوى ، التي يجب أن يبذل الإنسان كل قواه في سبيل الإكثار منه ، واعتبره الوثن الأوحد الجدير بالعبادة والتقديس .

فأعجب طاغور بنشاط الأمم الغربية ، وقدر مساعيها الجليلة في تقدم العلوم والفنون ، وسر من جدها الدائم في ترقية مستوى الحياة الإنسانية ، ولكنه في الوقت نفسه سخط على أنانية الغرب ومادیته ، واشمأز من جريه القبيح وراء المال ، واحتقر تفضيله الرذيل لبني جنسه ، وتقزز من استعماره الشين للشعوب الوديعة . لأن ذلك يخالف ما جبل عليه ، ويغاير ما تعود أن يعرفه عن الهند وما تعلمه من الهنود .

فلقد عاش أهالي الهند منذ القدم في غابات فسيحة غنية بشتى النبات ، فلم يجد الهندي صعوبة في العثور على طعامه وشرابه ، وتيسر له بناء مساكن من أخشاب الأشجار ، حمته من الحيوانات المفترسة ، والطبيعة الهائجة . فتأثر الهنود بحياتهم الأولى في أرجاء غابات تحتوي على مختلف الخيرات ، وتبلغ من الإتساع بحيث يمكنها أن تحتضن ملايين الناس ، وتمدهم جميعاً بالطعام والشراب ، وتوفر لهم المسكن . فنشأ الهندي منذ القدم لا يعرف الكد في البحث عن غذائه ، ولا التعب في الحصول على مواد بناء مسكنه ، لأن الغابات تضع كل ذلك في متناول يديه . فلم يشعر بعداوة الطبيعة ، لأنها مهدت له سبل الحياة ، كما لم يجد ضرورة لأن يمتلك أرضاً معينة ، يقيم حولها حواجز وتخوما تقيها من طمع الآخرين ، وتفصلها عما يمتلكه الغير ، لأن كثرة ما في الغابات من خيرات متنوعة يسهل الحصول عليها ، لم يدع أحداً يفكر في أن يخص نفسه بامتلاك شيء من دون بقية الناس ، مادام كل شيء يجب أن يناله يمكن أن يفوز به بدون مشقة .

فلم يقف حائل بين الهندي والطبيعة فأحبها ، وارتاح إلى الحياة في كنف حناتها ، ودعا إتصاله الوثيق الدائم بها إلى ائتلافه بكل جزء من أجزائها ، وإلى نجاة أفكاره من الرغبة الجامحة في بسط نفوذه على الطبيعة ، أو إمتلاك أرض يشيد حولها أسواراً خوفاً من أن يسطو عليها أخوه الهندي . وبعث جمال الطبيعة وتناسقها في نفسه شعوراً عميقاً بأن جميع مكونات الوجود في وحدة شاملة وأدرك أن كمال الإنسان في معرفة هذه الوحدة ، وأيقن أن الطريق الوحيد الموصل إلى هذا الكمال ، هو تلاشي فرديته في جميع محتويات الكون ، أو بإدماجها في كل ما حوله من كائنات . فساقه هذا الشعور إلى أن يقصر حياته على تحقيق هذه الوحدة ، وإكتساب الوسائل الصالحة التي تساعده على إفناء ذاتيته في الوجود بأكمله . ولم يفكر قط في محاربة الطبيعة ، لأنه عرف أن الإنسان متحدها ، ولم يرغب في السيطرة على قواها ، لأن أفكاره في اتحاد مع جميع الأشياء ، ولأن قوى الإنسان متحدة مع قوى الطبيعة وأغراضه في الحياة تتفق وأغراض الطبيعة .

فتشبعت العقلية الهندية بحقيقة وحدة الوجود ، وأصبح إدراك هذه الحقيقة الكبرى محور حياة قدماء الهنود ، وموضوع دينهم ، وغاية عباداتهم ، وسبب سعادتهم القصوى . وأصبحت رغبة الاتحاد بالله الذي يتجلى في مختلف أجزاء الوجود شاغلهم الشاغل ؛ فانصرفت كل مشاعرهم وأعمالهم إلى العثور على هذه الوحدة لأنهم لن يجدوا الراحة أو الأمن أو السلام ، ولن يذهب عنهم الخوف والقلق والاضطراب والشك والحزن ، مالم يدركوا فكرة اتحاد الكون التي يتطلب وعيها وعياً صادقاً حياة فكرية منعزلة طاهرة ، لا تؤثر فيها مشاغل الحياة .

فاختار زهاد الهنود أماكن نائية عن صخب الحياة الاجتماعية ومغريات مفاتنها ، وتبدو فيها الطبيعة على قسط كبير من العظمة والجمال ، حتى تبهر الفكر ، وتغريه بهجرة الحياة ، والتحرر من حدودها المادية الضيقة ، والتخلص من ضروراتها الزائفة ؛ وحتى تنبسط في ربوعها الروح ، وتتلمس في كنف روعة الطبيعة وجمال تناسق أجزائها مكانتها في الوجود .

ولم يجد الهنود مكاناً أفضل من غابات الهند الطويلة العريضة التي توفر الاعتكاف على النجاة من مفاسد الحياة وتتحلى بجمال رائع متناسق ؛ فلجأوا إليها يمقتون ذاتهم ، وحولها إلى معابد متنقلة يأوي إليها الزهاد والحكماء ، يستوحون من عظمتها وجمالها حقيقة الوجود الأولى ، وينشدون من عزلتهم حبس جهودهم على الفوز بأكمل مراتب الحياة الروحية .

فهيأت العزلة الفكرية للهنود فرصا للغوص فى عوالم من المعانى الروحية أنارت نفوسهم ، وكشفت لهم عن مثل إنسانية ، ومبادىء أخلاقية وقيم دينية ، ودفعتهم إلى سلوك طرق فاضلة ، وإتباع نهج طاهرة ، بينت للبشرية أن الهند بروحيتها أفادت الفكر الإنسانى ، وأضفت عليه قبساً من النور السماوى ، وأضافت إلى الحضارات حضارة تسمو عليها جميعاً فى الروحية ، وهذا كسب عظيم للانسانية يشرف الهند . إلا أن الهند بحريها الحثيث وراء الروح أهملت الحياة الأرضية إهمالا معيبا جعلها لم تبال بتنمية مواهبها الفكرية ، أو إنضاج إستعداداتها الفنية ، لكى تكتسب ملكات عقلية ومهارات صناعية ، تظهر بها تفوقها فى ساحات السياسة والاقتصاد والحرب ، وهى دعائم السيادة الحديثة . فلم تعتن بالعلوم التى هى أساس كل تقدم مادى أو نفوذ سياسى أو سطوة حربية ، فنشأ الشعب الهندى غير متمرن على أساليب الحرب ، لا يتقن وضع خطط الدفاع والهجوم فاستولى الطغاة على بلاده ، واستعمروا وطنه . وشب غير مدرب على الفنون الاقتصادية ، جاهلا السبل العبقرية فى جمع المال بعيداً عن جبل السياسة الملتوية ؛ فخدعه المستعمر ، واستغل موارده الطبيعية لمصلحته الخاصة من دون الهند صاحبة الحق الأول فى الاستفادة من هذه الموارد .

فعاب طاغور على الهنود جهلهم بمقومات الحياة العصرية ، وأنبهم على نفورهم من مشاكل الحياة الاجتماعية ، وحثهم على الإندماج فى ميدان الحياة العامة ، يؤدى كل منهم خدمات تعود على أهله أو الهند أو البشرية بالنفع والفائدة ، مادامت هذه الخدمات لا تخرج على تعاليم الدين أو تهدم قيم الأخلاق . ورغبهم فى الاشتغال بالعلوم والفنون ، مادام الاشتغال بها لا يتعارض مع تطهير الروح ، أو يمحو خلوصها من الدنس . بل إن العلوم والفنون والأعمال التى يواتيها فاضلة تقود إلى الفناء فى الله ، وتوصل إلى أعلى درجات الكمال الروحى ، فيجب على الهند أن تقلع عن تمسكها بتقاليد قديمة بالية أو هنت من عزيمتها ، وتترك جانباً النظرات التشاؤمية التى عاقت سعيها فى أى إصلاح ، وزعزعت ثقتها فى الحياة الأرضية فهدت لاستعمارها واستغلالها .

وبتحليل طاغور الدقيق للحضارات الهندية والغربية ، كشف بذهنه الصافى عن أخطاء الحياة الدولية ، ومن مدى تأخرها فى الروحية ؛ ولكى ينقذها مما هى فيه من فوضى وإثم حرض الهند على رفع مستوى حياتها المادية والفكرية فى حدود الأصول الروحية حتى لا تكون فريسة سهلة الاقتناص من جهة ، وحتى لا يتفشى فيها وباء المادية وأمراض الحياة الغربية من جهة أخرى؛ وبين للغرب أن الإنسان يمكنه أن يفكر ، ويكشف القوانين ، ويخترع مختلف الآلات ، ويبتكر فى الفنون والصناعات ، ويحافظ فى الوقت نفسه على الميول الخيرة فى الطبيعة البشرية ، ويكون روحياً غيريا محباً للانسانية ، ويتخذ من علمه وفنه وعمله وسائل متعددة للفناء فى الله وفى مختلف أجزاء الوجود . فحول طاغور الأنانية إلى غيرية ، وحب السيطرة إلى تعاون وتآلف وتحاب ، وحول العلوم والفنون والأعمال إلى أضراب متنوعة من العبادة بأن جعل محراب العلم لا يقل طهارة عن محراب المعبد ، وسما بقداسة الفن حتى عادلها بقداسة الدين ، واتخذ من العمل المنتج الصالح صلاة ترفع بالإنسان إلى خالقه . واعتبرها جميعاً سبلا طيبه تعمل على بلوغ نمط من الرقى الروحى ، ينمحى فيه شعور الفرد بشخصيته ، ويغمره إحساس عذب بفناء روحه فى ذات الله العليا ، ويستولى عليه إدراك عميق بوحدانية الوجود .

وعلى هذه الصورة الرائعة طهر طاغور الفكر الإنسانى من أشرار الأنانية ، وحب السيطرة ، ومن نقائص العزلة الفكرية ، ومساوىء تجنب الحياة الإجتماعية والعملية ، وأخطار النظرات التشاؤمية . وجمع بين نبوغ الغرب فى العلوم والفنون ، وجده المستمر المتجدد فى العمل ، وبين عبقرية الشرق الروحية ، وتعلقه الوطيد بالحب والتآلف ، فوضع للانسانية دستوراً شريفاً لو اتبعته لتذوقت طعم الراحة والسلام والأمن التى تحن إليها ، وتحررت من كل ما ينغص عليها الحياة ، وعاشت سعيدة فى وئام ، يشملها الحب والإيثار ، ويضمها الخير والود ، ويعلو من شأنها العلم والفن والعمل .

(للكلام بقية) عبد العزيز محمد الزكي

مدرس الآداب بمدرسة صلاح الدين الأميرية بكفر الزيات